الرصافي

عالم الذهاب

CA:614.43:Sh52aaA

[redacted]

AP 13 65

MY 27

AG 1

JA 8

2 JUN 1972

3 JAN 1985

معروف الرصافي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY
CA: 614.43
Sh52aarf
C.1

عالم الذباب

الطبعة الأولى
١٣٦٨هـ - ١٩٤٧م

مطبعة الزمان - بغداد

مقدمة

بقلم : عبد الوهاب الأمين

من حسن حظي أن يتسنى لي تقديم هذا الكتاب - او العجالة - الى القراء . فما بمؤلفه الكبير من حاجة الى تقديم. ولعل اللغة العربية والامم العربية كلها تعرفه معرفة يعز على كثير من مواطنيه أن يعرفوها.. ولنضرب صفحاً عن التقدير الشخصي ، فقد كان المرحوم الرصافي مضرب المثل في اهمال الناس لشأنه، وترفعه عن استدرار تقديرهم بالوسائل المعروفة.

لقد كان الرصافي خاتمة مدرسة من الشعر العربي ، لعلها انتهت قبل وفاته . فالواقع أنه انقطع عن مواصلة النظم منذ زمن بعيد قبل وفاته ، وانصرف قليلا أو كثيراً الى النثر واهم ما كتبه في حياته هو كتابه عن « الشخصية

المحمدية » الذى ينتظره كل من علم به . وما بقى من كتاباته كان تعليقات عابرة عن بعض الكتب التى طالعها على غير ترتيب .

وهذه الرسالة التى بين يدى القراء هي من توابع تلك السلسلة التى سماها «رسائل التعليقات» ونشر منها سفر واحد اثار نشره الكثير من القيل والقال حول موضوع «وحدة الوجود» ونقده لها فى كتاب الدكتور زكي مبارك عن التصوف الاسلامي .

وفى هذه الرسالة يحاكم الرصافى الدكتور فائق شاكر عن استشهاد له بحديث من الاحاديث النبوية حول غمس الذباب . وسوف يرى القارىء مقدرة الرصافى الفائقة فى تحقيق الروايات ، ومنطقة السليم فى النقد .

ولقد قال الكثيرون من من معارف المرحوم الرصافى الكثير فى مدحه والاطناب فى مكانته الشعرية ،

ولكن مالايعرفه القراءهو أن الشعر انل ادواته كما يقولون . وانه من أئمة الفقه النادرين فى هذا العصر .حتى لقد كان المرحوم استاذه الاكوسى نعته بالرصافى لكي يكون فى الرصافة بلايلا عن التصوف المشهور معروف الكرخي فى الكرخ وكان يعتز به كثيراً .

اذن فموضوع الرسالة هو موضوع الرصافى بلاجدال . هو موضوعه المفضل . وسيرى القارىء أنه يسير فيه بكل ثقة واطمئنان كما يسير المرء من داره لذى عاش فيه .

* * *

عاش الرصافى فى اواخر عصره عيشة هى اقرب الى عيشة الزهاد والمتبتلين .وقد كان من الظلم ان تذاع تلك الصورة المطلقة عن حياته السابقة عقب موته مباشر فان مابين الصورتين يكاد لا يعقله التصور . وقد ردد قبل موته بقليل قول ابى العتاهية !

حسبك مما تبتغيه القوت

ما اكثر القوت لمن يموت

وقد قيل كثيراً أنه لم يكن يجد قوته فى يسر .. كما قيل أنه لم يكن يجد الدواء لمرضه الذى مات فيه .

ولعل هذه الحياة الجافة ، المنقطعة ، الخالية من عنصر المرأة ، هي التى جعلت تفكيره ينصرف الى التجريد والصوفية . فكان اغلب ماكتبه فى اواخر حياته — على قلته — وثيق الصلة بهذه المواضيع . وهو — كما أسلفنا — غزير المادة الفقهية ولم ينس بعد طريقة الجدليين الفقهاء ، كما يبدو ذلك واضحاً فى رسالته هذه . فكانت تعليقاته كلها تقريباً دائرة فى هذا الضمار ومن جملتها رسالته هذه فى تمحيص الحديث النبوى الذى اورده الدكتور فائق شاكر فى سياق حديث له عن عالم الذباب . ويستطيع القارىء أن

يرى مناخة الرصافى عن شخصية النبي محمد ، ويلمس حماسته المتقده فى هذا الموضوع .

وليس نشر هذه الرسالة مقصوراً على الفائدة المرجوة من الناحية العامة . فان في نشرها شيئاً خاصاً هو مانود أن نسميه تذكير هذا الجيل بشخص الرصافي الذي مرخياله هنيأ ، وان كان قد ترك لوعة عند بعض مريديه واصدقائه والمعجبين بأدبه وشعره والحق أنه لو استمر هذا الحال عندنا لاقفرت سماؤنا ولاجدبت ارضنا من الانتاج . فكل ذاهب يترك فراغاً لا يملؤه أحد من بعده . ولو حاسبنا انفسنا لوجدنا هذا الفراغ يتسع الى غير حد ، ولو كنا جرئين لاعترفنا بأننا نعيش جملة على أدب مصر والبلاد العربية الاخري واننا لاتكاد نشعر بوجودنا في هذه الارض.

ولو كنت اعرف أن لمثل اقتراحي مجيباً لاقترحت ان تقوم

فئة او هيئة لنشر جميع مؤلفات الرصافي في طبعة خاصة بعد ترتيبها ووضع التعاليق والحواشي عليها من جانب لجنة خاصة تتألف من اصحاب الرصافي وتلامذته والمتصلين به. ولكن مثل هذا الاقتراح سيبقى اقتراحا على الورق . ولذلك سأهمس بـه فقط ، دون أن أضعه بصورة جدية .

ولعل من قام بطبع هذه الرسالة يوالي جهده المشكور في طبع غيرها . ولعل النجاح المأمول يفتح الباب امام بقية كتبه الاخرى !

بغداد — عبد الوهاب الامين

الناشرون والموزعون

مكتبة الصباح

سوق السراى - بغداد

عالم الذباب

نشر الدكتور فائق شاكر مدير الامور الطبية في الجيش العراقي رسالة بهذا العنوان ، وهي أول رسالة من نوعها نشرت في العراق ، وقد جاءت ممتعة بابحاثها الشهية ، نافعة بفوائدها الصحية ، طبق ما نعرفه للدكتور من براعة في الفن ، ومقدرة في العلم والأدب .

وقد تكلم الدكتور في رسالته هذه عن البكتريوفاج أي مفترسات الجراثيم ، كما فسرها هو ، وذكر انها توجد في الذباب ، وتطرق الى ذكر الحديث النبوي القائل بغمس الذبابة كلها في الشراب

عند وقوعها فيه ، ثم نزعها . وتكلم عن صحة هذا الحديث ، وعده من معجزات الرسول ، وفند رأي القائلين بعدم صحته . وقد أردنا أن نبدي بعض الملاحظات على ما جاء من أقواله حول هذه المسألة ، عسى أن تظهر الحقيقة فيها بصورة أجلى وأوضح ، وما نريد بذلك أن نكون عند صديقنا الدكتور إلا متطفلين على موائد علمه وأدبه .

معروف الرصافي

١٥ ايار ١٩٤٣

الحديث النبوي

نذكر لك أولا نص عبـــارة الحديث الذي ذكره الدكتور في رسالته :

عن ابي هريرة « اذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه ، فان في أحد جناحيه داء ، وفي الآخر شفاء وانه يتقي بجناحه الذي فيه الداء » .

وفي روايتي النسائي وابن حاجه : « إن أحد جناحى الذباب سم ، والآخر شفاء ، فاذا وقع في الطعام فامقلوه فانه يقدم السم ويؤخر الشفاء » .

هذا ما ذكره الدكتور في رسالته . ونذكر

نحن الروايات الآتية نقلاً عن شرح البخـــاري للعيني :

« اذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ، فان في إحدى جناحيه داء ، والاخرى شفاء » الجزء ٧ الصفحة ٣٠٢ .

ونقلاً عن شرح البخاري ايضاً للعيني :

« اذا وقع الذباب في اناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه فان في إحدى جناحيه شفاء وفي الآخر داء » الجزء ١٠ الصفحة ٢١٧ .

ونقلاً عن الجامع الصغير للسيوطي هكذا :

« اذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمســه

ثم لينزعه فان في إحدى جناحيه داء وفي الاخرى شفاء » .

رواه البخاري وابن حاجه

عن ابي هريرة

وقبل كل شيء نطلب انتباه القارئ الى اختلاف هذه الروايات في عبارة الحديث اختلافاً لفظياً ناشئاً على ما نرى من انهم كانوا في الأكثر يروون الأحاديث بالمعنى فيتصرفون في ألفاظها كل بحسب رأيه في معناها كما تراه في رواية هذا الحديث فبعضهم قال اذا وقع في الشراب ، وبعضهم في الطعام وبعضهم في الاناء ، ومنهم من عبر بالغمس ، وبعضهم بالمقل وهو بمعنى الغمس ،

وبعضهم عبر بالنزع والآخر بالطرح والمراد من كليهما واحد . ومنهم من اقتصر على الغمس ولم يذكر النزع ولا الطرح ، ومنهم من قال فليغمسه كله ومنهم من اسقط كلمة كله ، ومنهم من قال في احد جناحيه داء ومنهم من قال سم ، وبعضهم قال يتقى والآخر قال يقدم .

ولكن الروايات كلها اتفقت في أن الداء او السم هو في احد الجناحين وان الشفاء في الجناح الآخر ، وكذلك اتفقت ايضاً في بيان سبب الأمر بالغمس ، وهو أن الذباب عند وقوعه في الشراب يتقى بالجناح الذي فيه الداء ، او يقدم الجناح الذي

فيه السم ويؤخر الآخر كما جاء في الرواية الاخرى. فالأمر بالغمس انما جاء لكي يدخل في الشراب الجناح الآخر الذي فيه الشفاء.

إن هذا الاختلاف اللفظي الذي جاء في هذه الروايات لا يقدح في صحة الحديث إن كان صحيحاً ما دام المعنى المراد فيها كلها واحداً، ولكن على فرض صحة الحديث يستبعد أن يكون رسول الله تكلم بهذه الألفاظ المختلفة كلها، وانما عبر بواحدة منها، والرواة إلتزموا جانب المعنى فعبروا عنها بما يوافقها او يقاربها، سواء كان ذلك منهم عن قصد لمراعاة المعنى، أم عن نسيانهم وذهولهم عن

الألفاظ ، فان المعنى قد يرسخ في ذهن الراوي وتشذ عنه الألفاظ فاذا أراد بيانه عبر عنه بألفاظ من عنده . وكل من قرأ في كتب التاريخ شيئاً عن حياة الواقدي أحد مشاهير الرواة في القرن الثاني عرف كيف تكون الرواية بالمعنى ، فان هذا الرجل كان من أعجز الناس عن حفظ الألفاظ ، حتى أن المأمون الخليفة العباسي أراد مرة أن يحفظه سورة الجمعة من القرآن فما استطاع ثم وكل به من يحفظه اياها فما استطاع ، وكان الموكل به اذا حفظه آية ثم انتقل به الى ثانية نسي الاولى واذا عاد الى تحفيظه الاولى نسي الثانية ، وكان يقرأ ما نسيه بالمعنى فيبدل الألفاظ ، وأمثاله في الرواة كثيرون .

لا يتسع المقام هنا لنقد الرواية بالمعنى ، وبيان ما ينتج عنها من مضار ، فنترك ذلك لفرصة اخرى ، سوى انا نقول ان لجوهر المعنى ارتباطا كليا بجوهر اللفظ ، فكل تغيير في اللفظ ، لا يخلو من تغيير في المعنى ، قل او كثر حتى اننا لو وزنا الألفاظ المترادفة بقسطاس مستقيم من الفهم والادراك لما قلنا بانها مترادفة ، فتبديل الألفاظ بما يراد فيها او يقاربها في المعنى ، فيه خطر عظيم على المعنى خصوصاً في النصوص التي لا مستند لفاهمها فهماً صحيحاً سوى الألفاظ . ولا مرية في أن تبديل الكلمات بما يراد فيها او يقاربها في النصوص قد يغير وجه الحكم المستنبط منها ، كما انه قد يبعد

بها عن المعنى المراد بعداً شاسعاً . ولهذا ، نعم ! لهذا قالوا بان المترجم خائن . لأن المترجم مهما برع وأجاد في نقل المعنى بوضع ألفاظ من اللغة التي يترجم اليها ، تؤدي معنى الألفاظ من اللغة التي يترجم منها فانه لن يستطيع أن يوفي المعنى حقه بتمامه ، بل لابد أن يخون المعنى بعض الشيء في ناحية من نواحيه . فالمترجم لا يتخلص من الخيانة وإن كانت خيانته اضطرارية غير اختيارية .

ولهذا ايضاً امتنعت الاصابة والاجادة في ترجمة الشعر من لغة الى لغة اخرى لأن محاسن الشعر لا تقوم بالمعنى وحده بل بانتقاء ألفاظه ، وحسن سبكه وانسجام تراكيبه ايضاً ، ولا ريب أن محاسن

الكلام في كل لغة تختلف كل الاختلاف فالذي يترجم الشعر لابد له أن يتصرف فيه مراعاة لمحاسن الكلام في اللغة التي يترجم اليها ، وإلا جاءت الترجمة تافهة وخرج الشعر عن كونه شعراً ، وبهذا التصرف الذي لابد منه يقع البعد بين المترجم منه والمترجم اليه .

ولهذا ايضاً امتنعت ترجمة القرآن من العربية الى غيرها من اللغات ، فان ترجمته مع المحافظة على ما فيه من روعة وطلاوة تكاد تكون مستحيلة ، وقد ترجمه الترك في أيامهم الاخيرة عدة ترجمات فلم يفلحوا ، بل جاءت ترجماتهم شيئاً مضحكاً ، وقد ترجمه الى لغاتهم أهل اوربا ايضاً وقد ذكر لي أحد معارفي ممن يحسنون معرفة اللغات الغربية

أنه قرأ في احدى ترجماتهم قوله تعالى « وكل انسان ألزمناه طائرة في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً » مترجماً بما معناه أن كل انسان يوم القيامة يكون في رقبته عصفور معلق ، وهذا شيء مضحك ايضاً .

إن الكلام عن الرواية بالمعنى ، قد اخرجنا عن الصدد فلنعد الى ما نحن فيه فنقول :

لا كلام لنا على اختلاف الرواة في عبارة الحديث ، لأن المعنى المراد فيها كلها واحد ، وانما نريد أن نتكلم عن المعنى المقصود من الحديث فنثبته للقارئ واضحاً صريحاً ، ثم نرى هل ينطبق على مايقوله الدكتور ويدعيه .

إن المفهوم بصراحة من الروايات كلها ، هو أن الداء او السم ، لا يكون إلا في احد جناحي الذباب ، لا في كليهما ، وان الذباب عند وقوعه في الشراب او في الطعام ، يتقى صدمة الوقوع بالجناح الذي فيه الداء ، فينغمس ذلك الجناح في الشراب ، ويبقى الجناح الآخر فوقه غير منغمس ، وكأن عبارة احدى الروايات القائلة بانه « يقدم السم ويؤخر الشفاء » قد جاءت تفسيراً لعبارة الرواية الاخرى القائلة بانه « يتقى بجناحه الذي فيه الداء » .

واذا علمنا هذا فقد علمنا لماذا جاء الحديث يأمر بالغمس ، ذلك لأن الجناح الذي فيه الداء قد انغمس في الشراب ، فتلوث الشراب بدائه ،

بطل حكم الداء الذي حصل من الجناح الاول ، وسلم الشراب .

هـذا هو المعنى الواضح الصريح الذي تؤديه عبارة الحديث في جميع الروايات على اختلافها في التعبير . وبعد هذا فلننظر فيما يقوله الدكتور حفظه الله ، ليتبين لنا اين وجه الصواب .

أين محل البكتريوفاج من الذباب

نستاخص الجواب على هذا السؤال من كلام الدكتور نفسه فنقول : يدعى الدكتور بان المراد من الشفاء المذكور في الحديث هو ما اكتشفه العلم في هذا العصر من « البكتريوفاج » التي فسرها

بمفترسات الجراثيم ، واذا كان المراد بالشفاء هو هذا ، فلننظر اين يوجد البكتريوفاج من الذباب ، أهو في أحد الجناحين ، أم في كليهما ، أم في جسم الذبابة كله ، أم في قناتها الهضمية ، أم في ذراعيها ورجليها ؟.

قال حفظه الله في الفصل التاسع والصفحة (٥٢) « ان الذباب المعروف بذباب البيوت ، يقع على البراز ، والمواد القذرة ، وكل هذه مملوءة بالجراثيم المولدة للامراض فاختيار الذباب لها ، يدل على انه يأكل الجراثيم والبكتريوفاج معاً فبا كله الجراثيم اجتمع فيه الداء . وبحصول البكتريوفاج في جسمه اجتمع فيه الشفاء » .

إن المفهوم بصراحة من عبارة الدكتور هذه . ان البكتريوفاج يوجد في جسم الذبابة ، ولم يخص به عضواً دون آخر ، ولما كان الجسم يشمل الجناحين ، جاز أن يقال بانه موجود في الجناحين ايضاً . (ولا تنس أن عبارة الحديث تخص به احد الجناحين دون الآخر) .

ويفهم ايضاً ضمناً من عبارة الدكتور أن البكتريوفاج يوجد في القناة الهضميه من الذبابة لأنه قال بانها تأكله مع الجراثيم المضرة ايضـــاً وتتضمن عبارته ايضا أن البكتريوفاج يوجد في رجلى الذبابة وفي يديها لأنه قال تقع على البراز . ولا شك أن يديها ورجليها ترتطمان في البراز فتعلق

بهما الجراثيم المضرة والبكتريوفاج معاً . فمن هذه العبارة نفهم صراحة وضمناً أن البكتريوفاج يوجد في جسم الذبابة كله حتى الجناحين .

ولنا على هذا اعتراض ، وهو ان الذبابة بوقوعها على البراز قد تلوثت به يداها ورجلاها ، اي تلوثت بالجراثيم المضرة وبالبكتريوفاج معاً وانها باكلها البراز قد حصل البكتريوفاج في قناتها الهظمية ايضاً ، ونتوسع اكثر من هـــذا فنقول أن البكتريوفاج يوجد في صدرها ايضاً وفي بطنها ، لأنهما يليان البراز الذي وقعت عليه ، ولكن كيف تلوث جناحاها بالبراز فوجد فيهما البكتريوفاج ، وهما في القسم الاعلى من جسمها ، لا مساس لهما

معقول ولا مقبول ، لأن الذبابة بوقوعها في الشراب قد انغمس فيه أكثر جسمها ، ولم يبق منها إلا جناح واحد ، وقد دخل منهـــا في الشراب كلا النوعين النافع والمضر من الجراثيم ، فاي حاجه تبقى الى الغمس .

ثم ان الدكتور بعد ما فسر عجز الحديث على هذا الوجه وأخذ يتكلم عن صدره فقال :

« واما ما ورد في صـدر الحديث الشريف : (اذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه) فالغمس هو لأجل أن يدخل البكتريوفاج للشراب » .

اما نحن فنقول : اما ان الغمس هو لأجل أن

يدخل الشفاء او البكتريوفاج في الشراب فصحيح لا مرية فيه ولكن ذلك لا يتجه إلا بان يكون البكتريوفاج في احد الجناحين دون الآخر كما يناه آنفاً ، وإلا لم تبق حاجة الى الغمس لأن البكتريوفاج موجود في ذراعي الذبابة وفي رجليها وقد انغمستا في الشراب ، كما انه موجود في الجناح الآخر (على ما يقول الدكتور) وقد انغمس في الشراب ، ودخل البكتريوفاج فيه ، فلماذا يأمر بالغمس ، والبكتريوفاج داخل قبل الغمس .

وقال أيضاً في الصفحة (٥٣) فالفن قد اثبت وجود البكتريوفاج في جسم الذبابة ، سواء بحصوله

امر بغمس الجناح الثاني او بغمس الذبابة كلها كما جاء في بعض الروايات ، لكي ينغمس الجناح الآخر الذي فيه الشفاء ، فيبطل حكم الداء .

ولو كانت الجراثيم النافعة موجودة في كلا الجناحين او في جسم الذبابة كله لما أمر بالغمس ، بل كان الأمر بالغمس عبثاً ، لأن الذبابة بوقوعها في الشراب قد ارتطمت فيه ارجلها وايديها وبطنها وصدرها وأحد جناحيها ، وفي هذه الاعضاء كلها يوجد النافع والضار كما يقول الدكتور وقد حصل البكتريوفاج في الشراب ايضاً وبطل حكم الجراثيم المضرة ، أ فليس من العبث بعد هذا أن نغمس الذبابة في الشراب .

وخلاصة القول أن الحديث إن صح فانما ورد لبيان أمرين لا ثالث لهما ، احدهما غمس الذباب عند وقوعه في الشراب ، والثاني بيان سبب الغمس وحكمته . وعليه فالجدال بيننا وبين الدكتور ينحصر في نقطة واحدة هي الغمس لا غير ، ولذا نقول ان كان الشفاء لا يوجد إلا في احد الجناحين كما يقول الحديث ، وكان الذباب يتقي بالجناح الذي فيه الداء كما يقول الحديث ايضاً كان الغمس واجباً ، وكان الأمر به معقولاً ومقبولاً ، لكي يتم دخول الشفاء في الشراب مع الداء ، وان كان الشفاء او البكتريوفاج موجوداً في جسم الذبابة كله كما يقول الدكتور كان الغمس عبثاً ، وكان الأمر به غير

بالبراز . (سنذكر كلاماً للدكتور يكون جواباً لهذا . ثم نجيب عليه) .

وقال ايضاً في الصفحة (٥٣) .

« وبنقله (اي الذباب) الجراثيم والبكتريوفاج المهيأ في براز الناقهين مباشرة ، اجتمع في الذباب الداء والشفاء » قال « فهذا هو معنى ما ورد في عجز الحديث الشريف (قال في أحد جناحيه داء وفي الأخر شفاء) .

ان الدكتور يرمي الكلام على عواهنه رمياً ، وإلا فكيف يكون هذا ، هو معنى ما ورد في الحديث .

لا شك أن الذباب يوقعه على براز الناقهين ،

وأخذه منه الجراثيم ، يكون قد اجتمع فيه كلا النوعين من الجراثيم المضرة والنافعة بلا ريب . فاجتماع كلا النوعين في الذباب اي في جسمه أمر لا مرية فيه ، ولكن كيف يكون ذلك هو المعنى المقصود مما ورد في الحديث الذي يخص كل واحد من النوعين بواحد من الجناحين . ولولا وجود المضر في جناح والنافع في جناح آخر لبطلت حكمة الأمر بغمس الذباب في الشراب . إذ لا شك أن الأمر بالغمس مسبب عن وجود الشفاء في جناح واحد ، وعن كون الذباب يتقى عند وقوعه بالجناح الذي فيه الداء ، فالجناح الذي يتقى به ينغمس في الشراب ، ويبقى الجناح الذي فيه الشفاء خارجاً غير منغمس ، فلذا

او بنقلها من براز الناقهين » .

وقال ايضاً في الصفحة نفسها : « وحيث ورد في نص الحديث (فليغمسه) اي فليغمس الذبابة كلها فقد دخل في الغمس جسمها مع جناحيها ، ولم يرد في الحديث غمس الجناحين فقط ، مما دل على ان الداء والشفاء في الجناحين امر اعتيادي لا يفيد التخصيص ، والأمر بغمسها يؤيد ذلك وهو لأجل تطهير الشراب من الجراثيم بادخال البكتريوفاج للشراب من جسم الذبابة » .

هـــذه هي عبارته بعينها ومينها . وقد جاءت بالاعاجيب فاننظر فيها بشيء من التحليل والتمحيص ليظهر ما يرمي اليه الدكتور فيها .

يقول « قد دخل في الغمس جسمها مع جناحيها » فنقول : اذا وقعت الذبابة في الشراب ، فقد انغمس فيه جسمها لا محالة . اما الجناحان فيجوز أن يكونا منغمسين ايضاً تبعاً للجسم ، ويجوز أن يكونا غير منغمسين لرقتهما ، ولكونهما من الفروع العليا في جسم الذبابة . وبناء على هذا ، كان ينبغي للدكتور أن يقول فقد دخل في الغمس جناحا الذبابة مع جسمها ، ولكنه عكس العبارة لكي يجر الحديث الى ما يريده هو . ولما كان من الجائز انغماس الجسم دون الجناحين ، او دون احدهما ، ورد الامر في الحديث بغمس الذبابة كلها ، لكي ينغمس جناحاها ايضاً مع جسمها ، لا جسمها

مع جناحيها كما يقول الدكتور ، وهنا نعود فنقول ان حكمة الأمر بالغمس تبطل اذا كان الشفاء او البكتريوفاج موجوداً في جسم الذبابة كله كما يقول الدكتور ، لا في احد جناحيها كما يقول الحديث .

ويقول في عبارته هذه ايضاً : « ولم يرد في الحديث غمس الجناحين فقط » . اي بل أراد غمس الجسم ايضاً مع الجناحين . هذا هو تفسير مراده من هذه العبارة ، فنقول يا سبحان الله ان عبارة الحديث بنطوقها وبمفهومها تدل على ان جسم الذبابة عند وقوعها في الشراب يكون منغمساً فيه ، وكذلك احد جناحيها ، فلذلك أمر بغمسها كلها

لكي ينغمس الجناح الآخر الذي فيه الشفاء ، وعليه كيف يريد غمس الجناحين فقط حتى يحتاج الدكتور الى نفيه ؟

وقال في الصفحة (٥٣) « ولو كان للاجنحة فقط خصوصية الداء والشفاء ، لأمر عليه الصلاة والسلام بغمسها وحدها » .

يريد الدكتور بهذا الكلام ، ان الامر بغمس الذبابة كلها ، يدل على ان الداء والشفاء موجودان في الجسم كله لا في الجناحين فقط ، وإلا لزم أن يأمر بغمس الجناحين فقط ، فنقول أن الامر بغمس الذبابة كلها صحيح ، ولكنه لم يأمر بذلك إلا لأجل أن ينغمس الجناح الذي فيه الشفاء لأن

الجناح الثاني والجسم منغمسان في الشراب وهل من المعقول أن يأمر بغمس المغموس.

وكيف يمكن غمس الأجنحة وحدها حتى يأمر به الرسول ، ان غمس الجناحين فقط لا يمكن إلا بصورة واحدة ، وهي أن نلقي الذبابة على ظهرها ، ونمسكها بالمنقاش من يديها ورجليها ، ثم نضعها بدقة وتأن على الشراب حتى ينغمس فيه جناحاها فقط دون سائر جسمها ، ولا ريب ان هذا متعذر بالنسبة الى سائر الناس ، فكيف يأمر بغمس الأجنحة وحدها كما يقول الدكتور .

ويقول في عبارته المتقدمة : « مما يدل على أن الداء والشفاء في الجناحين امر اعتيادي لا يفيد

التخصيص والأمر بغمسها يؤيد ذلك ، وهو لأجل تطهير الشراب من الجراثيم ، وذلك بادخال البكتريوفاج في الشراب من جسم الذبابة » .

يريد الدكتور بعبارته هذه المضطربة أن يفهمنا أن الجناحين انما ذكرا في الحديث جرياً على العادة ، لأن العادة تقضي بوجود الجراثيم المضرة والنافعة في الجناحين ايضاً كما توجد في جسم الذبابة ، فعبارة الحديث لا تفيد تخصيص الجناحين بالجراثيم ، بل جاء ذكرهما اعتيادياً . هذا هو مراد الدكتور من عبارته هذه فنقول :

قد تقدم ما يفيد بطلان هذا ، ولكننا نكرره لمزيد الايضاح ، ان عبارة الحديث تنص على

تخصيص أحد الجناحين بالداء ، والآخر بالشفاء .
وبيان ذلك ان الحديث أمر اولاً بغمس الذبابة كلها
ثم بين سبب الغمس وحكمته بقوله ان في احد
الجناحين داء ، وفي الآخر شفاء ، وبين ايضاً أن
الذباب عند وقوعه يتقي بالجناح الذي فيه الداء ، اي
يقدم الجناح الذي فيه الداء . فيكون منغمساً في
الشراب ويبقى الجناح الثاني الذي فيه الشفاء خارجاً
غير منغمس فاذا غمسنا الذبابة كلها ، انغمس الجناح
الثاني الذي فيه الشفاء ايضاً ، وبذلك تندفع المضرة
الحاصلة من انغماس الجناح الاول . ولولا تخصيص
احد الجناحين بالشفاء والآخر بالداء لكان الامر
بغمس الذبابة كلها عبثاً ، لأن جسم الذبابة مع احد

جناحيها قد انغمس في الشراب فلو كان الشفاء في الجسم كله لم تبق حاجة الى الامر بالغمس .

ان هذا المعنى في عبارة الحديث واضح جلي يفهمه كل من سمع الحديث ولو كان اعجمياً طمطماً ، ولكن الدكتور حفظه الله يقول ان عبارة الحديث لا تفيد التخصيص ، وانما جاء ذكر الجناحين اعتيادياً ، اي جرياً على العادة التي تقضي بوجود الجراثيم في الجناحين كوجودها في الجسم ، مع ان العـــادة تقضى خلاف ذلك ، لأن الجناحين يكونان بحكم العادة وبحكم الضرورة ابعد اعضاء الذبابة عن الجراثيم لأنهما لا يباشران المواد التي تقع عليها الذبابة بل يكونا في أعلى الذبابة بعيدين عنها .

ولا شك ان اول شيء من الذبابة يباشر المواد التي تقع عليها هو يداها ورجلاها ، ثم بطنها وصدرها ثم سائر جسمها ثم جناحاها اذا كانت المادة التي تقع عليها من السوائل . ولكن الحديث يقول ان طبيعة الذباب اذا وقع في السوائل أن يقدم الجناح الذي فيه الداء ويؤخر الجناح الذي فيه الشفاء فينغمس الاول ويبقى الآخر غير منغمس . فلذا امر بغمس الذبابة كلها لكي ينغمس الجناح الذي فيه الشفاء ايضاً .

ان عبارة الحديث لا يغرب معناها عن فطانة الدكتور ولكنه أخذ يتمحل في التوجيه ويتعسف في التفسير لكي يقربها من المعنى الذي يريده

هو . الا انه رغم هذه التمحلات ، بقى قلق الخاطر ، غير مطمئن الضمير ، لانه يعلم ان الجناحين ابعد اعضاء الذبابة عن الجراثيم ، فماذا يعمل حتى يجعلها مقرا للجراثيم اكثر من سائر الاعضاء .

والظاهر انه فكر طويلا حتى وجد طريقا الى حل هذا المشكل فقال : « وبما ان الذبابة تمسح دائما رجليها باجنحتها ، كانت الاجنحة لذلك مقرا للبكتريوفاج والجراثيم اكثر من غيرها من اعضاء الذبابة » . فالله دره ما اقدره على قلب الحقيقة بالكلام المجرد .

يقول ان الذبابة تمسح دائماً رجليها باجنحتها ، ان الباء في هذه العباره مثلها في قولهم كتبت

بالقلم اي هي للاستعانة ، فالممسوح الرجل ، والماسح الذبابة ، والجناح هو آلة المسح . والظاهر ان المسح يكون بظهر الجناح لا ببطنه ، لان الذبابة اذا خفضت جناحيها وانزلتهما الى ما تحت رجليها ، كان ظهر الجناح تحت الرجل بالطبع ، اذ لا تستطيع الذبابة في هذه الحالة ان تقلب جناحيها الى حيث يكون باطنهما الى الاعلى ، وظاهرهما الى الأسفل ، ومهما يكن فجناح الذبابة على هذا اصبح منديلا لها تمسح به رجلها .

ان الدكتور قد اثبت للذباب بهذا القول طبيعة لا يعرفها الناس ، ولم يستند في اثباتها الى قول علمي من اقوال علماء الحشرات الذين درسوا حياتها ،

وعرفوا طبائعها واحوالها ، وقد تكلم هو في الفصل الخامس من رسالته عن خواص الذباب وطباعه ، فلم يذكر فيه شيئاً من ذلك .

لا يقال ان في عبارة الدكتور قلبا ، وان اصلها هكذا :

ان الذباب يمسح دائماً اجنحته بارجله ، لانا نقول ان رجلي الذبابة وهما في اتجاهها الى الاسفل معتوفتان الى الأمام ، وليس في استطاعتها ان ترفع رجلها الى ما فوق جناحها فتمسحه بها ، ولا ان تخفض جناحها الى ما تحت رجلها فتمسحها به ، اذ ليس ذلك من طبيعه الذباب فمن المحال عادة وطبعا ان يمسح الذباب اجنحته بارجله او ارجله باجنحته .

وانما المعروف من طبيعة الذباب من قديم الزمان هو انه يحك احدى ذراعيه بالاخرى ، كما ذكره عنترة في معلقته ، ولم يشاهده احد يحك احدى رجليه بالاخرى ، ولا يحك بجناحيه رجليه ، وقد شاهدته انا في بعض الاحيان يمسح وجهه بذراعيه ويمر بهما على رأسه . فمن اين أخذ الدكتور هذا القول عن طبيعة الذباب ، وكيف تكون اجنحته مقرا للجراثيم اكثر من الارجل والايدي التي هي متصلة مباشرة بالمواد التي يقع عليها الذباب .

والمشهور من الذباب انه ينقل الجراثيم بارجله وبايديه ، لا باجنحته . والدكتور نفسه قد ذكر ذلك في رسالته فقال في الصفحة (٤٤) : « وعلاوة على

ذلك ، تنقل الذبابة الجراثيم برجليها ويديها المكسوة بالشعر » ثم قال « ومما يجدر بيانه هو ان قدمي الذبابة وكفيها تشبهان خف البعير ، عليها شيء يشبه الشعر ، او الوبر . وهذه تفرز افرازات لزجة فتلتصق الجراثيم عليها ، وتستطيع الذبابة بهذه المادة اللزجة ، وبفضل هذا الخف . ان تقف على السقوف والجدران باي وضع شاءت » .

وعليه فاذا كانت ايدي الذباب وارجله كما يقول الدكتور تفرز مادة لزجة . وعليها شيء يشبه الشعر او الوبر ، كانت بلا ريب مقرا للجراثيم اكثر من سائر اعضائها ، لذلك . ولأنها اول ما يباشر الاقذار التي عليها الذباب ، فكيف تكون الأجنحة مقراً للجراثيم اكثر من ايديها وارجلها .

سؤالان

هل البكتريوفاج موجود في الذباب دائماً وابداً ؟ وهل هو شاف لجميع الامراض ؟

نريد ان نجيب على هذين السؤالين بما علمناه وفهمناه من كلام الدكتور في رسالته ، لاننا لسنا من اهل هذا الفن ، ورحم الله امرأ عرف قدره ، ولم يتعد طوره ، فلذا نرجو من القارئ ، ان يقرأ اولاً ما كتبه الدكتور في هذا الباب ، خاصة في الفصل الحادي عشر من رسالته ، ثم ينظر فيما نقوله هنا . ويحكم بما شاء .

تكلم الدكتور في الفصل المذكور عن دوريل مكتشف البكتريوفاج ، وقال بانه اثبت ان البكتريوفاج

هو العامل الوحيد على اطفاء جائحات الهيضة المسماة بالهواء الاصفر او الكوليرا ، وانه موجود في براز من هم في دور النقاهة من المرض المذكور ، وان الذباب يأخذه وينقله من براز هؤلاء . وانه متى ظهر وانتشر الذباب الحامل البكتريوفاج بكثرة في البلاد ، انطفأت جذوة الهواء الاصفر ، وانقطع دابره بسرعة .

فيفهم من هذا . ان البكتريوفاج لا يوجد إلا في ايام الهيضة . لأن الذباب انما يأخذه من براز النقهين من هذا المرض . فاذا انقطعت الهيضة لم يبق للبكتريوفاج وجود ، ولم يذكر لنا الدكتور في كتابه لا صراحة ولا ضمناً أن البكتريوفاج

موجود في كل براز من برازات الانسان والحيوان لأنه اذا كان موجوداً في كل براز لزم أن يكون موجوداً في الذباب دائماً وابداً ، فاينما وجد الذباب وجد معه البكتريوفاج ، وإلا فلا .

ثم تكلم الدكتور في الفصل المذكور ، فبين كيف كان دوريل يعمل على تكثير البكتريوفاج بازدراءه ، وكيف كان يداوى به المريض بمرض الهيضة . وقال ثم اجريت تجارب عديدة في الهند فاتت بنتائج باهرة فيما يختص بياسيل الدوزنطاريا الحادة ، الى أن قال فحصلوا على نتائج ، وكان البكتريوفاج العامل في شفاء الكوليرا والدوزنطاريا الحادة .

وقال ثم جاءت مجلة التجارب الطبية في عددها (٥٤) الصادر عام ١٩٢٧ بمقال عنوانه البكتريوفاج في ذباب البيوت . قالت فيه لقد اطعم الذباب الذي يألف البيوت زرع الجراثيم المرضية .

وبعد حين اختفى اثر هذه الجراثيم في الذباب فماتت كلها وتولد في الذباب مادة قاتلة للجراثيم تسمى البكتريوفاج ، ويدعى الكاتب انها خلاصة من الذباب ومن محلول ملحي فسيولوجي ، وان هذه الخلاصة تحتوي على المادة البكتريوفاجية القوية المضادة إربعة انواع من الجراثيم المولدة للامراض او انها تحتوي على مادة نافعة اخرى ليست من نوع البكتريوفاج ، ولكنها من حيث الجوهر تفيد

الدفاع العضوي عنـــد مقاومته اربعة انواع من الجراثيم المرضية . هذا آخر ما قاله الدكتور في الفصل المذكور .

فيفهم من هذا فهماً جلياً واضحاً ، ان البكتريوفاج لا يشفي من جميع الامراض وانما يشفي من مرض الهيضة والدوزنطاريا لأن هذين المرضين يشتركان في انهما اختلال في الامعاء ، ويفهم ايضاً أن البكتريوفاج لا يضاد جميع الجراثيم المضرة وانما يضاد اربعة انواع منها والجراثيم المضرة التي ينقل الذباب بواسطتها الامراض الى الناس كثيرة ، تكلم الدكتور عنها وعددها في الفصل الثاني من رسالته . فذكر منها السل والدراخوما والتفوئيد والزحار والطاعون والجمرة

والحمرة الخبيثة والكوليرا والجذام والتيفوس والرمد بانواعه .

وبهذا يتضح أن الذباب لا يأخذ البكتريوفاج إلا من براز الناقهين من مرض الهيضة . وهذا لا يوجد في كل زمان ومكان . واما الخلاصة التي ذكرها عن مجلة التجارب الطبية والتي تحتوي على المادة والبكتريوفاجية فالبكتريوفاج فيها حاصل بالتطعيم ولم يأخذه الذباب من الخارج ، إلا انها تدل على أن الذباب فيـــه خاصية توليد المادة البكتريوفاجية المضادة لاربعة انواع من الامراض لا للامراض كلها . وهذا لا يلزم منه أن يكون الذباب مطهراً بالبكتريوفاج من جميع الادواء ،

ولا شافياً من جميع الامراض ، كما انه لا يستوجب غمس الذباب في الشراب على الاطلاق . اما الحديث فانه يطلق الامر بغمس الذباب ولم يقيده بشئ .

هذا ما نستخلصه من كلام الدكتور للجواب على السؤالين المذكورين في صدر المقال ثم نقول :

ان البكتريوفاج لا يخلو من أحد امرين ، اما أن يكون موجوداً في الذباب دائماً وابداً وشافياً من جميع الامراض . واما أن لا يكون كذلك فعلى التقدير الاول يلزم أن نتخذ الذباب في حياتنا واقيالنا من جميع الامراض . وأن نعني كل العناية به وبتنميته وبتكثيره في بيوتنا وأن لا نتحاماه ، بل نضعه في اطعمتنا واشربتنا لنأمن به من عاديات الاسقام وجائحات الامراض .

واذا كان هذا حقاً فلماذا نرى الدكتور في رسالته يصيح بالناس صيحة النذير العريان ، فيحذرهم من اخطاره ، وينذرهم باضراره ، ويستحثهم الى محوه واستئصاله ، كما اطال الكلام بذلك في الباب السادس والسابع والثامن من رسالته .

واما على التقدير الثاني وهو ان البكتريوفاج لايوجد في الذباب دائماً وابداً ، وانما يوجد فيه عند حدوث احوال وظروف خاصة ، وانه لا يشفي من جميع الامراض ولا يضاد جميع الجراثيم ، وانما يشفي من امراض خاصة ويضاد انواعاً اربعة من الجراثيم المضرة فنقول فيه انه يلزم حينئذ ان يكون الامر بغمس الذباب في الشراب مقيداً بتلك الظروف

والاحوال ، لا مطلقاً ، ولا يخفى ان الحديث الذي جعله الدكتور من معجزات الرسول يطلق الامر بالغمس ولم يقيده بشئ ، كما انه يخص بالشفاء أحد الجناحين دون الآخر .

اما انا فلا اشك ان الحديث موضوع لا أصل له كما ذكرت ذلك وبينته في كتابي (الشخصية المحمدية) عند الكلام على الرواية عند العرب .

ومن العبث أن نفتش عن معجزات رسول الله في مثل هذه الامور التي يكتشفها الناس ويصلون الى معرفتها بالطرق العلمية ، والوسائط الفنية ، ولو كانت معجزة لما قدروا على اكتشافها ، ولو جاز أن نثبت معجزة من هذا النوع لجاز أن نثبتها

للمتنبي شاعر . العرب فانه قبل عشرة قرون قال :

لعل عتبك محمود عواقبه

فربما صحت الاجسام بالعلل قول

انتقد المتنبي على هذا وقيل له هذا من قول الطب او الحكيم كما تفي رسالة الحاتمي او غيره فانظر اليها . فقد قال هذا في الايام التي كان التطعيم فيها بجراثيم الامراض غير معلوم ، فمن البكتريولوجيا غير موجود فاين هذا . واين المعجزات .

إن الله لم يرسل رسوله الى الناس لتعليمهم العلم وانما ارسله اليهم ليصلحهم ، ويأخذهم بالطاعة . وبالاعمال الصالحة ، والاخلاق الفاضلة ، ذلك لأن السعادة الانسانية لا تتحقق إلا في مجتمع ، وان المجتمع

لا يتم بناؤه إلا بالتعاون المخلص ، والخلق المستقيم الصادق ، وبالعمل الصالح ، كما ذهب اليه ابن رشد وغيره من فلاسفة الاسلام ، فليس غرض الشارع تلقين العلم ، بل غرضه كما قلنا أخذ الناس بالطاعة وبالاعمال الصالحة .

المعجزة

اما المعجزة فهي كل ما خرج عن مقدور البشر عادة فلابد في المعجزة من خرق العادة . ولذلك قالوا « لله خرق العادات » . واما هذه الامور المجهولة فهي داخلة في مقدور الناس عادة . لأنهم يتوصلون الى اكتشافها ومعرفتها اما بالتجريب أو بالبحث والتنقيب . او بغير ذلك من الطرق العلمية .

ونحن اذا اردنا أن نعرف معجزة المعجزات فلننظر الى رسول الله محمد بن عبدالله . يتيم مكة وفقيرها كيف قام بالدعوة الى الاسلام في ايام كان العرب فيها محتربين . متعادين . متناكرين يأكل بعضهم بعضاً كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله . وكيف قاومته العرب حتى عشيرته الأقربون . وكيف استمر على الدعوة بنفسه الكبيرة . وعزمه العظيم الجبار متحملا في سبيل ذلك من المصائب والمتاعب ما فوق طاقة كل انسان حتى جمع اشتات العرب ووحد كلمتهم ! واحدث بهم نهضة كبرى . عربية المبتدا . عالمية المنتهى . فسارت بهم اعلامهم الى اقصى الشرق . وأقصى

الغرب خافقة بالنصر ومرفرفة بالعدل والاحسان . وكان كل ذلك في مدة لا تزيد على عشرين سنة بعد وفاته .

ولو ان سائحاً في ذلك الزمان الذي لا واسطه فيه اسرع من البعير . اراد أن يسيح سياحة متفرح لا فاتح . في البلاد التي نشروا فيها لواء العدل والتوحيد . لما استطاع أن يتم سياحته في أقل من هذه المدة . فهذه هي معجزة المعجزات التي اظهرها الله على يد محمد . والتي لم يسبق ولن يكون لها نظير في تاريخ البشر .

CA: 614.43: [redacted]
الرصافي، معروف
عالم الذباب
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01028611

Ar[illegible] Beirut

CA
614.43
SR52aaA

General Library

CA
614.43
Sh52aaA
c.1